الأســـد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

جلس أبو على أحمد بن محمد الرُّوذَبَادى البغدادى [1] فى مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبى الحسن بُنَان الحمال الزاهد الواسطى شيخ الديار المصرية [2] وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثر أهل مصر فى جنازته فكان يومه يوما كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ ما بقى أحد إلا اقتنع أنه فى شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى فى سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق، إذ ينظر كل امرئ فى مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة باللمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه فى الشىء لا على دليل الشىء فى نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتى الموت فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعا فلا

(١) توفى سنة ٣٢٢ (٢) توفى سنة ٣١٦

النجاح أن كل إنسان له أكثر من شخصية واحدة وإن كان لا يدرى ذلك.

ويثقل على نفسى خاطر واحد يكاد يصدنى عن المواظبة، هو ما جدوى ذلك كله؟.. ما آخر هذا العناء الذى أراه باطلا؟. آخر ذلك كله معروف. وهل ثم من آخر سوى الفناء؟. ولكنى أعود فأقول لنفسى إن هذا الآخر لا آخر سواه، سواء أبذل المرء الجهد، أم قعد عنه وضن به، فلا فائدة من التقصير، ولا ضير من السعى. والحياة أن تحيا، لا أن تجمد وتركد وتأسن. أما الجدوى فلماذا أعذب نفسى بالسؤال عنها؟ وما جدوى أى شىء فى الحياة؟. إن كل ما أعرفه أنى موجود، وأنى وهبت قدرة على الاحساس والتفكير، فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل عملها؟. وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور به وأنا أعطل ماأعطيت؟ ويعرف الجدوى من أعطانى الحياة، فلندع ذلك له فهو أعرف به.

ابراهيم عبد القادر المازنى

يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ماهو باطل ويحق الذى هو حق.

وتكلم أبو على فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد [1] فى بغداد فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الرى والجبال فى وقته [2] يقول فيه: لا أذاقك الله طعمَ نفسك فانك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً. قال: فجعلت أفكر فى طعم النفس ما هو وجاءنى ما لم أرضه من الرأى حتى سمعت بخبر بُنان رحمه الله مع احمد بن طولون أمير مصر، فهو الذى كان سبب قدومى إلى هنا لأرى الشيخ أو صحبه وأنتفع به.

والبلد الذى ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الالهية، هو فى الجهل كالبلد الذى ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة، وإن كان كل أهله علماء، وإن كان فى كل محلة منه مدرسة، وفى كل دار من دوره خزانة كتب، فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال، فانما هى صواب أو خطأ ينتهى إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهى إلى الروح، وهو فى تأثيره على الناس أقوى من العلم إذ هو تفسير الحقائق فى العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها. ولو أقام الناس عشرسنين يتناظرون فى معانى الفضائل ووسائلها ووضعوا فى ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معانى الفضيلة وخالطوه وصحبوه - لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدلَّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب. ولهذا يرسل الله النبىَّ مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائل الانسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير.

ومامثل الكتاب يتعلم المرء منه حقائق الأخلاق العالية، إلا كوضع الانسان يدَه تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض، فقد أنشأ يعمل ولكنه لن يرتفع. ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروسا أخرى تعمل عملا آخر غير الكلام؛ فان أحدهم ليجلس بمجلس المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليما آخر من حيث يدرى ولا يدرى، ويكون كتاب الله مع الانسان الظاهر منه وكتاب الشيطان مع الانسان الخفى فيه

* * *

(١) توفى سنة ٢٩٨ (٢) كانت وفاته سنة ٣٠٤

قال أبو على : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ وأحقق ماسمعت من خبره مع ابن طولون . فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد يتلألأ فيه نوره ويعمل فيه سره ؛ وهما كالشمعة والشمعة فى الضوء وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة . وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكا ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه لا يراه من يراه منهم إلا أحسّ أنه شخصه الأكبر . فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الإنسانية للناس وكأنه مخلوق خاصة لاثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها أو لامسها ، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها ، ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كاصابة المرض تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتفقد الشيء ماهو به شيء ، فتحول قيمته . فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

واذا عدم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلّما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد ، وكبار الشجعان ، وكبار العلماء وأمثالهم ؛ كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى

* * *

قال أبو على : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون فقطعنى هيبته ، فقلت أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرى « لا أذاقك الله طعم نفسك » . وبينما أهيىء فى نفسى كلاما أجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين وأخشى أن ينكر اذا هو علم بضياعها ؛ فادع الله لى وله أن يظفرنى بدينى وأن يثبته على الحق . فقال الشيخ : إنى رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى ، فاذهب فاشتر لى رطلا منها وأمتعنى به حتى أدعو لك .

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فاذا هى الوثيقة الضائعة . وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهى . ثم إنه التفت إلى وقال لو أن شجرة اشتهت غير مابه صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيقت طعم نفسها ، لأكلت نفسها وذوت

* * *

قال أبو على : والمعجزات التى تحدث للأنبياء والكرامات التى تكون للاتقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق ، كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعينى رأسى كل ما سمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضى أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (١) ذاك الذى يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفا فيها الكبير والصغير . فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون فمن أجله زعمت جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرنى وهبته فلم أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون (٢) من جارية تركية وكان طولون أبوه مملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك . فولد أحمد فى منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعتيه إلى آخر عمره ، فذهب بهمته مذهبا بعيدا ، ونشأ من أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالى ، وظل يرمى بنفسه وهو فى ذلك يكبر ولا يزال يكبر كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على مايعلم الله

قال : وكان عقله من أثر طبيعتيه كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذى بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء وشرط إذا جىء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس

(١) توفى سنة ٢٧٦

(٢) كانت امارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة وتوفى سنة ٢٧٠

ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، ولم يكن هذا قبل إمارته . وهو أول من نظر فى المظالم من أمراء مصر . وهو صاحب يوم الصدقة ، يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه لذلك فى كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس . ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون فى اثنين منها فالوذج[1] وفى الآخرين من القدور ، وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر . وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو فى المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . وكان راتب مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، واقتدى به ابنه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامة[2] ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار ، كل شهر

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها فى مدة ولايته ألفى ألف ومائتى ألف دينار[3] وكان كثير التلاوة للقرآن ، وقد اتخذ حجرة بقرب فى القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبرين ، يتعاقبون الليل نوباً ، يكبرون ويسبحون ، ويحمدون ، ويهللون ، ويقرأون القرآن تطريباً وينشدون قصائد الزهد ، ويؤذنون أوقات الآذان ، وهو الذى فتح انطاكية فى سنة خمس وستين ومائتين ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها ، فلما نابذه أهلها وقاتلهم ، أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ليبلغ ذلك طاغية الروم ، فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس فيكون بهذا كأنه قاتله وصده عن بلد من بلاد الاسلام ويجعل هذا الخبر كالجيش فى تلك الناحية

ومع كل ذلك فانه كان رجلا طائش السيف يجور ويعسف وقد أحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا فى سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفا . وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة فى حادثة معروفة وقال له : غرك قول الناس ما فى الدنيا مثل بكار ؟ أنت شيخ قد خرفت ؛ ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء فكانت عشرة آلاف دينار ؛ قيل إنها وجدت فى بيت بكار بختمها لم يمسها زهداً وتورعا

ولما ذهب شيخك أبو الحسن ينعفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر طاش عقله فأمر بالقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذى طار فى الدنيا حتى بلغك فى بغداد

* * *

قال : وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم ، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه . وكان هذا خمارويه مشغوفاً بالصيد لا يكاد يسمع بسبع فى غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم

وكان الأسد الذى اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيما ، ضارياً ، عارم الوحشية ، منزيل العضل ، شديد عصب الخلق ، هراساً ، فراساً ، أهرت الشدق ، يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبيء أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأ كله .

وأجلسوا الشيخ فى قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه ، فجذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه فانطلق يزمجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة .

ثم اجتمع الوحش فى نفسه واقشعر ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقى من أجل الشيخ إلا طرفة عين . ورأيناه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والاشفاق على الرجل .

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته فأقعى على ذنبه ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل

(١) نوع من الحلوى وهو ما يسميه العامة (البالوظة)

(٢) هذا هو الاصل فى مطعم الشعب

(٣) الدينار نصف جنيه مصرى فمدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه ، صدقاته على بغداد وحدها رحمه الله

التق والأسد ، ولكنهما بارزتين إرادة ابن طولون وإرادة الله .

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بازاء لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل فى روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يسرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التى هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والنملة ، وما دونها من الهوام والذر .

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدى الأسد ولكنه هو والأسد بين يدى الله ، وكان مندمجا فى يقين هذه الآية : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » .

ورأى الأسد رجلا هو خوف الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ، فليس فى الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس فى الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الاسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التى يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه فى تلك الساعة أو اختلجت فى نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه فى خياشيم الأسد فتمزق فى أنيابه ومخالبه

***

قال : وانصرفنا عن النظر فى السبع إلى النظر فى وجه الشيخ فاذا هو ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً فى تفكيره ، فمن قائل انه الخوف أذهله عن نفسه . وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حاله من الاستغراق يسحر بها الأسد . وأكثرنا فى ذلك وتجارينا فيه حتى سأله ابن طولون : ما الذى كان فى قلبك وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن على بأس ، وانما كنت أفكر فى لعاب الأسد أهو طاهر أم نجس .....

(ملطا) مصطفى صادق الرافعى

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة ، وهى مدينة قرقشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضى ألفى عام على نيامها ؛ وما زلنا نذكر ما أفاضت به الأنباء يومئذ طرافة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية . وقرقشونة احدى مدن ولاية « سبتمانيا » السبعة ، وقد كانت مدى حين معقلا اسلاميا فى جنوب فرنسا ؛ وما زالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتاريخها الحافل أياء الرومان والقوط والعرب

وإن مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا المقام عاصمتيها الجليلتين ، الاسكندرية ثغرها العظيم التالد ، والقاهرة عروس العواصم الاسلامية ؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ؛ وأشرفت القاهرة على ألفها ؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفى بخطى سريعة فان من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخى العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به واحاطته بما يجب من ضروب الاشادة والتكريم ؛ ومن بواعث الأسف ألا يرتفع حتى اليوم صوت رسمى ينبه إلى هذا الحادث القومى الجليل ، وينوه بخطورته وأهميته ، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوى لوزارة معارفها ، واحتفلت من قبل بالعيد المئوى لمدرسة الطب ، والعيد المئوى للمدرسة الخديوية ، والعيد الخمسينى لإنشاء المحاكم الأهلية ، وغيرها من المواقف والحوادث القومية ، وأدركت ماوراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بعث للماضى ، وتكريم للذكريات المجيدة ، وإذكاء للعاطفة القومية ، ووصل بين